الأدب والحرية مترادفان ..

بقلم عزالدين المدني

العالم العربي اليوم محكوم عليه بأن يخترع أدبه، وحريته،وحضارته لأنه يعيش أزمات تاريخية حادة ويشهد تقلبات اجتماعية ضارية ،ويحيا في هذا النصف الثاني من القرن العشرين الذي لم يجد فيه حظه كسائر شعوب العالم الثالث وبلدانه .

نعم ! ينبغي أن يخترع العالم العربي أدبه ، لان الادب الذي عاش عليه منذ عهد انتهضة الى اليوم هو في خطوطه العريضة اجمالا اما سلبيا يدعو الى الرجوع الى الماضي بأية صفة من الصفات بواسطة الدين ، أو عن طريق الاصالة ، أو بقداسة العربية الفصحى ، بينما الماضي انقرض،وفات، ولن يعود ، واما مرقعا ، ملفقا، مدروشا ،يتتبع عن كثب خطى أوروبا الغربية بالخصوص .فماراجت موضة الا وتبناها لكن بعد سنوات .. كموضة « الهيبي » التي روجها بعض التجارظنوا انفسهم من المثقفين العرب اواعين ،ثم تفليعة «الالتزام والابراج العادية»، ثم « اللامنتمي » وغيرها من الشنائع الفكرية المجهضة !

فالاتجاه الاول سلبي أي في اعتقادي انهزامي في مواقفه من القضايا العربية ، فمن جرائه وقعت حروب طاحنة على رؤوس العرب اشهر من ان تعرف في هذه الكتابة . بالاضافة الى انه اتجاه كسول لانه يعتمد على الماضي ، ومتواكل ، لانه ملتفت الى الماضي متوكىء عليه ، عاجز لانه فارغ الدماغ من أية ايديولوجية فيها أمل نحو المستقبل ، اذا استثنينا أمله الذي كان يريد الرجوع بنا الى القرون الوسطى !.

وهذا الاتجاه يتضمن مفارقة ، بعدا بين الاديب السلبي والشعب وقضاياه لا اليومية فقط بل المصيرية أيضا . اذ هو يعالج تلك القضايا الجديدة بأدوات خماء ، قديمة ، عتيقة ،.. واذ الشعب يبقى بحكم ذلك الاعوجاج بعيدا عن ادراك الحقائق الاجتماعية .

اما الاتجاه الثاني فهو لا يقل خطورة عن الاول . لان الكاتب الذي يتتبع الاتجاهات الادبية والفنية والفكرية وينقلها بعد سنوات ويقدمها الى القارىء العربي بدعوى التفتح وغيرها من الكلمات المزيفة لا يدرك الكاتب العربي الا نادرا ان هاتيك الاتجاهات الاوروبية الغربية ـ ولو كانت تقدمية الايديولوجية ـ انما هي أعلاق الاخطبوط الاستعماري الجديد .

وهذا الاتجاه يتضمن مفارقة ايضا ، بعدا بين الكاتب المثقف المرفع المرتق والشعب وقضاياه . اذ هذا الكاتب يخاطب النخبة كالسلبي بالضبط ، لا الشعب واراء هذين الاتجاهين الذين تتحكم فيهما المفارقة لا يسعنا الا ان ندعو الى مراجعة الماضي مع الغاء القداسة التي تحيط به ، بما في ذلك اللغة العربية التي هي في حاجة ماسة الى التفكيك ثم الى اعادة التركيب مع مزجها باللهجات العربية وادخال المعرب والدخيل عليها ، وتيسيرها حتى يستسيغها الاجنبي وتغريه ، وحتى تتمكن هي بالتالي ان تجد حظها الى جانب اللغات الكبرى في عالم اليوم :

وحتى لم يدرك بعض الكتاب في العالم العربي اليوم انه من الواجب القيام بثورة هائلة داخل اللغة العربية بوصفها الاداة الكبرى لايصال الادب المكتوب والمنطوق والمرئي فان الادب العربي اليوم لن يكون له المد المنتظر منه سواء ليعالج أهم القضايا التي يتخبط فيها الانسان العربي في حياته اليومية والمصيرية أيضا ، أو ليخرج من البلاد العربية في اتجاه اقطار العالم لمقاومة الامبريالية والاستعمار الجديد .

لا بد للكاتب ان يكتب بكل حرية اعني بلا تقليد الماضي، ولا « تقريد » الموضات الغربية،لانه يواجه قضايا من نوع جديد لا عهد للمجتمعات العربية بها من قبل ، وعليه ان يحلها أو على الاقل ان يثيرها بأداة جديدة يقتبسها من واقعه هو ، لا من واقع ماضيه ،ولا من واقع الدول الغربية .

فاذا تم تحوير وجهة الادب العربي اليوم ، فان كثيرا من الكتاب سيمسكون حتما عن الترامي على اعتاب جائزة نوبل للحصول عليها ، ليؤسسوا جائزة كبرى تضاهيها قيمة ومبلغا ، وليعملوا على ترجمة احسن مالديهم من الانتاج شعرا كان أو قصة أو مسرحية الى اللغات الغربية الكبرى ، ولينشؤوا دورا للنشر في اوروبا ذاتها ، او ليروجوا بضاعتهم الفكرية عن طريق دور النشر الكبرى في باريس ولندن ونيويورك وفرانكفورت وروما .

كما يستوجب هذا التحوير في اتجاه الادب العربي الحرية المطلقة في التعبير شكلا ومضمونا ـ وهنا ألح على المضمون وأؤكد عليه ـ بكامل الشجاعة والجرأة ومهما كان الثمن . لان دور الكاتب في العالم العربي اليوم هو دور قيادي ومشاركة في الحكم احب ذلك الساسة ام لم يحبوا او رموا المثقفين في السجون او احالوهم على المعاش قبل الاوان ، او تملقوهم ومنحوهم المناصب العليا في الدولة .

وهذا الدور يتسم دائما بالصبغة النقدية اكثر من صفة المدح ، والاطراء ودق الطبول ، لانه دور حر ، لا بعمل من اجل مصلحة شخصية او في سبيل تحقيق منفعة خاصة . لان الادب الناقد هو ادب نابع من الواقع بل من وعي الواقع وعيا تاريخيا قويا .

ولان الادب الناقد هو في خدمة الشعب الذي يطمح الى بناء الحضارة الجديدة بكل قواه لا في خدمة بعض الاشخاص الذين اثروا على حساب استغلالات بعض البلاد العربية ، فهادنوا القوى الرجعية ،وتملقوا الاستعمار الجديد ، وانهزموا امام غزو الامبريالية.

اذا كانت للكاتب رسالة ،واذا كان للكاتب دور،فما عليه الا ان يوطد اركان الحرية ويعززها في بلاده ، وان يلقن الشعب معناها العميق ، حتى يكون لهذا الشعب غد افضل حقا ، لا غد مزعوم فضفاض مليء بخيبة الامال ، ومرارة الاوهام ، وبشاعة الاحلام .

تونس

عزالدين المدني